الاستبداد السياسي وتحولات نظام التفكير

■■ الشيخ محمد العليوات*

لا يبقى نظام التفكير على وتيرة واحدة، بل هو قابل للتغير والتبدل باسمرار. إن ما يتعرض له نظام التفكير من متغيرات عديدة، وما يواجهه من ضغوط شديدة تساهم في عملية تفكيكه وتحلله، وتنقله إلى نظام آخر له ساحاته ومواصفاته، كما تساهم مؤثرات أخرى في تكامله ورشده ونضجه، وتنقله هي الأخرى نقلة نوعية، وتكسبه مواصفات جديدة وسمات مميزة. وكل ذلك بسبب تفاعل الإنسان مع متغيرات الحياة التي تفرض عليه نوعاً معيناً من التفكير، حيث يتلون نظام التفكير حسب معطيات تلك المتغيرات وتأثيراتها، فكلما كانت ضاغطة في اتجاه معين، فإن نظام التفكير نفسه يتشكل في الاتجاه ذاته.

والنظام السياسي أحد العناصر المؤثرة جداً في تشكيل نظام التفكير وتوجيهه؛ حيث تتأثر جوانب الحياة المجتمعية بشكل النظام السياسي وطبيعته، ويصور التراث الإسلامي قدرة السلطان (النظام السياسي) وتأثيره على مناحي الحياة المختلفة كما في المروي عن الإمام علي عليه السلام: «إذا تغير السلطان تغير الزمان»[1].

والمعنى أن (النظام السياسي) يلون النظام المجتمعي بلونه، ويطمغه بطبيعته، ولذلك فالزمان يتغير بتغير النظام، فلكل نظام أفكاره وخططه، وطبيعته الخاصة، من هنا فإن نظام التفكير في المجتمع يتأثر بشكل كبير بالنظام السياسي السائد، فالنظام الفرعوني المتسلط المستبد لا ينتج إلا الخوف والذل والجبن كما يستكشف ذلك من خلال تتبع قصة

* عالم دين ومفكر إسلامي، السعودية.

بني إسرائيل في القرآن الكريم، وتجربتهم مع النظام الفرعوني؛ حيث يصور القرآن الكريم طبيعة النظام الفرعوني بقوله عزّ من قائل: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[٢].

بيد أن نظام التفكير السائد في مملكة بلقيس يختلف عن النظام الفرعوني بل هما نظامان متضادان، ولكل منهما طبيعة خاصة، فالأول نظام اضطهادي، إقصائي، متفرد.. ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾[٣]، والآخر يمثل نظام الشورى[٤] والمشاركة في اتخاذ القرارات السياسية الخطيرة، يظهر ذلك من خلال السلوك الديموقراطي التي سلكته الملكة (بلقيس) حيث دعت المجلس الاستشاري للانعقاد وعرضت عليهم الحدث الجديد المتمثل بوصول رسالة نبي الله سليمان عليه السلام إليها، والذي يدعوها فيها إلى الدخول في الإسلام. يقول عز من قائل على لسان بلقيس: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾[٥].

ويكشف هذا الخطاب السياسي الحكيم عن إيجابية النظام ودعوته للمشاركة وتحمل المسؤولية. إن الإيجابية هذه من توليد وإفراز نظام سياسي صالح، إذ النظام السياسي يولد مخرجات مجتمعية تربوية واقتصادية وثقافية.. تتوائم وطبيعته. وكما جاء في المأثور فإن السلطان كالنهر، إذا صلح صلحت روافده، وإذا فسد فسدت روافده.

المداهنة والخضوع:

ولسلطة الاستبداد السياسي أثرها الكبير في تشكيل بنية التفكير المجتمعي، وصياغة نظام التفكير وتوجيهه، إذ يدفع الاستبداد والاضطهاد والقهر السياسي بتشكل ثقافة مجتمعية تزود نظام التفكير بقيم وعناصر تنتمي لمنظومة الثقافة الاستبدادية وإفرازاتها العميقة، وما يولده غالبها من خنوع واستسلام وذل، حيث يدفع الخوف الإنسان المقهور الذي لا يظهر مقاومة للاستبداد السياسي إلى ممارسة المداهنة والاستسلام للمقولات والأوامر ذات الشبه الفرعوني بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك في بيان عمق التأثير الذي تتسم به الثقافة الفرعونية، ومدى تغلغلها في نظام التفكير المجتمعي حتى بعد زوال سلطة الاستبداد، وربما أمكن قراءة سلوك بني إسرائيل عند لجوئهم إلى عبادة العجل بعد أن خلصهم القاهر عزّ وجلّ من فرعون رمز الاستبداد على أنه استمرار لثقافة الخنوع والذل الذي تمكن من نفوسهم وتغلغل إلى أصقاع ذواتهم..

إنها ثقافة الاستبداد التي تأتي على شموخ الذات وعزها لو لم يكن هناك إحساس وشعور بالقهر، ومايثيره ذلك من إحساس وشعور بضرورة صد الاضطهاد ومقاومته، يقول السيد المدرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾[٦].

«الطاغوت انتهى ولكن آثار سيطرته لم تزل كامنة في النفوس، وبارزة في التصرفات متمثلة في حالة الاستسلام والهزيمة النفسية والمتعود على الخضوع، من هنا تركهم قائدهم ومنقذهم عدة أيام، فلما عاد إليهم فإذا بهم يسجدون للعجل، لأنهم لا يزالون عبيداً في نفوسهم بالرغم من تحررهم الظاهر»[٧].

حالة اللامبالاة:

من تداعيات الاستبداد السياسي على الذات الفردية والجماعية عدم الاكتراث واللامبالاة بما يدور في المجتمع من قضايا، وأحداث، واستحقاقات، وهموم؛ حيث يسلب الاستبداد من الإنسان تفاعله مع ما يحط به من قضايا وهموم، بل يجعله خارج منظومة التفاعل الطبيعي، ويُصِّيره غالباً مخلوقاً سلبياً لا يقدر على شيء، حيث يقتل الاستبداد في كثير من الأحيان الشعور بالمسؤولية، والإحساس بالواجبات تجاه المجتمع والوطن، فليس هناك موقف إيجابي تجاه مشكلات المجتمع، والعمل على الدفاع من مصالحه، بل إن التهرب من تحمل المسؤولية والتنصل منها، ومن التصدي للطغيان السياسي والتفرد سيد الموقف، إنه أشبه بموقف من يتفرج على حرائق مندلعة في جميع الأرجاء ولا يحرك ساكناً، ولا يبادر إلى إطفائها مع خطورة الموقف، وحرجه، وكما تقول الأمثال الشعبية في مواطن الاستبداد: «خلِّ القرعة ترعى» حيث يضرب هذا المثل للإهمال وعدم المبالاة وترك الأمور تسير في أي اتجاه سواء كان نافعاً أم ضاراً، وسواء كانت نتائجه القريبة والبعيدة للبناء أو الهدم[٨].

ويكشف هذا المثل وأشباهه مدى سيطرة ثقافة اللامبالاة وانتقالها بمر الأجيال التي عانت من استمرار الاستبداد باعتبار أن الأمثال الشعبية تمثل الذاكرة الجماعية للأمم، وتعد محصلة مركَّزة لقناعات الأمم، وأفكارها المعتصرة من التاريخ بأحداثه السياسية وظروفه الاجتماعية.

الانكفاء والانغلاق على الذات:

عندما يهيمن الاستبداد على صورة اضطهاد وقهر، يرتد الأفراد الذين وقع عليهم الاستبداد إلى داخلهم لخوفهم وخشيتهم من الآخر، حيث يتوجسون منه الشر بشكل دائم، وتسود نظرة الحذر الشديد من الآخرين، وربما تتطور هذه الحالة إلى عدم الرغبة في التواصل مع الآخرين، والميل الشديد للذوبان في الجماعة انطلاقاً من حماية الذات التي في حالة الاضطهاد إلا من خلال الانصهار في الجماعة والتحصن بها كوسيلة دفاعية ضد القهر الخارجي، وتفرض الجماعات التي يقع عليها أذى الاستبداد عزلة شديدة قد تؤدي إلى نظرة نرجسية عن الذات، بسبب إغفال حالة المقارنة مع الجماعات الأخرى، وتوهم حالة التفوق والتميز، فالنظرة المتورمة والمتعالية بسبب العزلة والانكفاء قد تولد مبتنيات أو

أفكار تؤسس لنظام تفكير يعتمد على مقدمات وخلاصات واستنتاجات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، مما يؤدي إلى مأزق في نظام التفكير الجمعي لاحقاً بعد انكشاف الأخطاء ونرجسية النظرة إلى الذات المتورقة والموهومة بالتميز!

الحالة الاتكالية:

يسلب الاستبداد الاضطهادي بالتدريج من الإنسان الثقة بالذات وعندها يلوذ بقوى تحميه، وتوفر له الأمن، كالذوبان والانصهار في الجماعة.. الطائفة... القبيلة، ليجد نفسه في الأخير غارقاً في تبعية للغير وعلى مختلف الأصعدة[٩].

ويلجأ الأفراد في مثل هذه الحالات والظروف للتعويض عن حالة العجز بمجموعة من السلوكيات، تظهر وتكشف عن مدى العجز ومجمع الاتكالية في حياتهم، حيث يخلق الأفراد في أذهانهم حلولاً سحرية وخيالية من خلال تصور البطل الفذ المنقذ الذي يقلب الأوضاع في عشية وضحاها، من دون أدنى جهد جماعي، حيث لا يتم الفتح إلا عبره، وتنسج القصص والخيالات والمقولات حول الزعيم المنقذ.

والعلاقة مع الزعيم المنقذ هو أمية؛ لأنها ليست علاقة مع إنسان فهي له قدراته وطاقاته وحدوده وعيوبه، ومحاسنه وهذا نوع من التماهي الإسقاطي، بمعنى أن الإنسان المقهور يسبغ على الزعيم كل تصوراته الطفلية بالقوة والقدرة، وكل مثله العليا، ويجعل منه باختصار الصورة النقيض تماماً لصورته عن نفسه والتي يجهد في الهروب منها؛ لأنها نموذج النقص والمهانة.. إن الإنسان المقهور يعيش في علاقته بالزعيم علاقة فعلية بين إنسان وآخر وعلى اختلاف المقامات، بل بين إنسان وتصور خرافي يسقط على الزعيم، وهذا ما يُحمِّل الزعيم أعباء لا قبل لأحد من بني البشر بها[١٠].

وخلاصة: فإن الأفراد في مثل هذه الحالات ينظرون إلى الزعيم كأداة تقوم بتوفير الأمن والخير الوفير بدلاً عنهم، وربما أشارت كلمات بني إسرائيل إلى نبيهم موسى عليه السلام كما يعبر القرآن الكريم على لسانهم في قوله تعالى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[١١] إلى هذه الحقيقة.

وبالعودة إلى ما سبق ذكره فإن بني إسرائيل حديثو عهد بالتحرر من الاستبداد إذ كانوا يرزحون تحت حالة استبداد وقهر شديدين، ومن هنا فإن تلك المخلفات الثقافية في مرحلة الاستبداد جعلت من نظام التفكير عندهم يعاني من القصور بل الاعتلال، ومرة أخرى تكشف الآيات القرآنية عن آثار حالة القهر عليهم إذ إنهم أرادوا التحرر والإصلاح لكن ليس بواسطتهم وفعلهم هم، وإنما بالاتكال السلبي على قيادتهم، وإذا بهم يهربون من التصدي وصعوباته ومشقاته وتضحياته، ويُحمّلون كل ذلك لزعاماتهم وقياداتهم.

إنهم يريدون من القيادة الدينية أن تحمل عنهم مشاكل الحياة، وتقوم بدلاً عنهم

بالعمل من أجل حالها..

فالنصارى الذين زعموا المسيح يفديهم بنفسه ويخلصهم من شرور أنفسهم، ومن سيئات أعمالهم كانوا من هذا النوع، واليهود الذين وكلوا الله عنهم في الحرب كانوا هكذا أيضاً، أي علَّقوا كل شيء على قيادتهم، وتهربوا هم من أعباء المسؤوليات واتكلوا على زعاماتهم فيها[١٢].

كما وتظهر عند بني إسرائيل ظاهرة الأمل في الخلاص السحري ولو من خلال المعجزة، فلم يكن خطابهم لنبيهم موسى عليه السلام استخفافاً به؛ لأنهم ما كانوا يشكون في رسالته، ولكنهم طلبوا منه معجزة كما تعودوا[١٣].

وهكذا تتكرر هذه الحقائق المعبر عنها بالاتكالية وإلقاء الأعباء على الغير وخصوصاً الزعيم والقائد، إذا اجتمعت شروط الاستبداد السياسي التي توصل المجتمع من خلال نظام التفكير الجمعي إلى التوسل بالحلول السحرية المعاجزية حيث يكون الحل دائماً وأبداً على هذه الشاكلة! ينتظرونه من غيرهم ومن خارجهم ولو كان عبر المحيطات، لكن لا يكون عبرهم ومن خلالهم هم، فالعجز المتكرس في ذواتهم يشل طاقاتهم وحركتهم، إنهم قاعدون.. قاعدون.. أبداً كما قال بنو إسرائيل، وليذهب الغير أنى كان ليؤدي الدور بالنيابة عنهم، فإنهم لن يباشروا الدور المناط بهم أبداً!

الهوامش:

(١) ميزان الحكمة، ج٤، ص٥١٤.
(٢) سورة البقرة، آية ١٤١.
(٣) سورة غافر، آية ٢٩.
(٤) راجع (دفاعاً عن الإسلام لا عن المرأة).
(٥) سورة النمل، آية ٣٢.
(٦) سورة البقرة، آية ٥٨.
(٧) تفسير من هدي القرآن الكريم، ج، ص١٥٣.
(٨) الأمثال الشعبية، ص٢١٦.
(٩) راجع: التخلف الاجتماعي، ص١٢٠.
(١٠) التخلف الاجتماعي.
(١١) سورة المائدة، آية ٢٤.
(١٢) راجع تفسير من هدي القرآن، ج٢، ص٣٤٨.
(١٣) راجع تفسير التحرير والتنوير، ج٥، ص٨٠.